أهمية المصطلح في الفهم الدقيق للنص واستيعابه

نموذج كتاب "مفاتيح النور" للدكتور فريد الأنصاري

د. عبد الرحيم الرحموني
مدير معهد الدراسات المصطلحية بفاس ورئيس شعبة اللغة العربية وآدابها بكلية الآدبا بفاس

تقديم :

لقد قيل منذ القديم إن المصطلحات مفاتيح العلوم، ولعمري إنها مفاتيح كل شيء، حيث أنها يمكن أن تكون مفاتح الخير، كما يمكن أن تكون مفاتح الشر، ويمكن أن تكون مفاتح البناء، كما يمكن أن تكون مفاتح الهدم، ومنذ القديم قال فرعون لقومه واصفا نفسه بأنه الهادي إلى السبيل القويم وإلى طريق الرشاد : ﴿ما أريكم إلا ما أرى وما أهديكم إلا سبيل الرشاد﴾(غافر : 26)، كما جعل من نفسه مصلحا كبيراً في مقابل النبي موسى ﷺ الذي جعله مفسداً في الأرض، فقال مظهراً غيرته على مصلحة قومه : ﴿إني أخاف أن يبدل دينكم وأن يظهر في الارض الفساد﴾(غافر : 26) ولقد آتت دعوتُه أكلها في قومه وخاصة في الملأ المقرب منه، فقالوا له مستحثين على المضي قدما في "تطهير الأرض من الفساد" ﴿وقال الملأ من قوم فرعون أتذر موسى وقومه ليفسدوا في الارض ويذرك وآلهتك﴾(الأعراف : 126) فما كان منه إلا أن طمأنهم بأنه قادر على تجفيف منابع هذا "الفساد" الذي بدأ يستشري في الأرض، ﴿قال سنقتل أنباءهم ونستحيي نساءهم وإنا فوقهم قاهرون﴾(الأعراف : 126).

ولقد استمرت هذه الرؤية الفرعونية على مدار التاريخ حيث لم يكن الكافرون والمنافقون في زمن بعثة الرسول محمد ﷺ ببعيدين عن المنطق، فقال تعالى مخاطبا رسوله ﷺ ذاكراً منطق الكافرين في قلب المفاهيم والمصطلحات : ﴿وإذا قيل لهم لا تفسدوا في الارض قالوا إنما نحن مصلحون ألا إنهم هم المفسدون ولكن لا يشعرون﴾(البقرة : 10- 11).

إنه منطق قلب المفاهيم بقلب مصطلحاتها حتى يتم تعويم الحقيقة عن الباحثين وتضبيب الطريق على السالكين، وتضييق الخناق على المومنين، ولذلك فإن تمييز المفاهيم بعضها عن بعض بتمييز مصطلحاتها الدالة على أساس مهم من أسس الفهم السليم للنص، أي نَص، في أي علم أو مجال كان، حتى يتم استيعاب المفهوم على حقيقته، دون ضبابية أو غبش في التصور أو الرؤية.

وإذا كان الأمر كذلك **فإن أولى ما ينبغي التثبت من مقاصده ودلالاته ومفاهيمه، كتاب الله تعالى وحديث رسوله ﷺ، حتى لا يضل فكْر عن مقصده، أو تزل قدم بعد ثبوتهاَ. ومن ثم تستشري الفوضى في التصورات، والمفاهيم والرؤى.**

إن الإحساسَ بهذه الأهمية للمصطلح وتمثلها حق التمثل وإدراكها بشكل متكامل، هو ما نضج عند الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله وطُبخ على نارٍ هادئة حيث إنه رحمه الله بدأ مسيرته العلمية في مجال البحث الجامعي الأكاديمي باعتماد الدراسة المصطلحية منهجا في دراسته، وسار على دربها بكل ثقة إلى آخر مرحلة من مراحل البحث الجامعي، حتى استوى عودها بشكل كامل وأثمر يانعا في أبحاث ومؤلفات ودراسات ومحاضرات ومقالات ومواعظ، مما عُرف به رحمه الله.

ويأتي كتاب "مفاتح النور" إحْدى هذه الثمرات المتميزة التي عرف بها الأستاذ الدكتور فريد الأنصاري رحمه الله.

كتاب "مفاتح النور" والدراسة المصطلحية

كتاب "مفاتح النور" دراسة للمصطلحات المفتاحية لكليات رسائل النور، لبديع الزمان سعيد النورسي، وحيث هُو دراسة لهذه المصطلحات المفتاحية فقط، وليس لكل المصطلحات، فإن الكتاب تناول بالدرس المصطلحات التالية :

التوحيد - الإنسان -الكون - القرآن -الانتساب الإيماني -الأخلاق. ستة مصطلحات خصص لها ستة فصول من الكتاب بالإضافة إلى المقدمة والتمهيد.

ولعل مما يلفت الانتباه في المقدمة، حديث المرحوم عن منهج الدراسة المصطلحية الذي هو قوام هذا الكتاب وعموده، فلقد بين رحمه الله بأسلوبه الأدبي ومنهاجه الحجاجي أهمية هذه الدراسة وقيمتها في الكشف عن حقائق الأمور، مما يستوجب منا وقفة إيضاحية تبيانا للعنوان أعلاه، وكشفا لما يتطلبه مقام هذا العرض المتواضع.

يقول رحمه الله : «والدراسة المصطلحية علم منهجي قائم بذاته، ينهض بدراسة المصطلح العلمي باعتباره جوهر العلم وأساس وجوده، إذ هو كما وصفه - بأدق ما يكون الوصف- فضيلة الدكتور الشاهد البوشيخي، إذ قال : «والمصطلح - كائنا ما كان- إما واصف لعلم كان، أو ناقل لعلم كائن، أو مؤسس لعلم سيكون» وإذ كان كذلك فلا علم إلا وهو منبه -في مقولاته المفهومية- على مصطلحاته، وهذا أمر ظاهر ومن هنا كان قولنا : «إن المصطلح هو العلم» على سبيل الاستغراق الكلي للفظ (العلم). وثبات المعنى الحاصل في الجملة الاسمية بإطلاق. مع العلم أن ذلك ليس دالاً بالضرورة على انطباق الحكم نفسه على (الدراسة المصطلحية) من حيث هو منهج للدراسة..!

إن المصطلح -من حيث هو مفهوم واقع في الوجود ابتداءً- يمثل الحقيقة الوجودية الأولى للعلم. أيّ علم! فهو إذن الجوهر من سائر المعارف الكونية. وما القضايا العلمية الحاصلة بعد -البناء عليه- إلا أعراض قائمة بهِ، تماماً كقيام الألْوان بالأجسام، لولا هذا ما حصل إدراك تلك»(1).

ولقد دفع الأستاذ فريد الأنصاري رحمه الله، انطلاقا من هذا القول نحو بيانٍ شامل للمسألة المصطلحية مقَعِّداً ومؤسساً ومعللاً، فبيّن أولا أن المصطلح «إنما هو تسمية علمية على مسمّاهَا من المفاهيم العلمية، فهو إذن اسمٌ علَمٌ على بنات العلم»(2) واستدل على ذلك بقول الله تعالى : ﴿وعلم آدم الاسماء كلها﴾، الذي ورد «بصيغة العموم غير المخصص، بل المؤكد استغراقه لكل "اسم". هكذا (كلها) لأن الأسماء من أساس الموجودات فلم يبق بعد ذلك من حقائق الوجود إلا العلاقات القائمة على الربط بين الأسماء بالوظيفتين الحرفية والفعلية، ولهذا فالفعل يؤول بالمعنى الوجودي -لا النحوي- إلى الحرف، أي من حيث هو مفتقر في وجودهِ إلى غيْره»(3).

ومما اعتمد على ذلك في بيان هذا الفهم، أن (الكلام) كما عرفه النحاة اسم وفعل وحرف، ولا شيء يستقل بذاته منها إلا الاسم، لأن الحرف مفتقر إلى غيره، كما قالوا، وأما الفعل فلا وجود له إلا بحركة الفاعل الحسية أو المعنوية، أي أنه هو أيضا مفتقر إلى الفاعل بالمعنى الوجودي.

كما أنه رحمه الله استند في ذلك إلى إشارات لطيفة دقيقةٍ في هذاً المعنى، وردت عند سعيد النورسيٍ رحمة الله عليه في تقسيم الموجودات باعتبار الفناء والبقاء إلى (معنى اسمي) و(معنى حرفي) ممثلا في ذلك بمن ينظر إلى المرآة من حيث إنها زجاجة، فإنه يرى مادّتها الزجاجية، وتكون الصورة المتمثلة فيها شيئا ثانويا، بينما إن كان القصد من النظر إلى المرآة رؤية الصورة المتمثلة فيها، فالصورة تتوضح أمامك حتى تدفعك إلى القول : ﴿فتبارك الله أحسن الخالقين﴾ بينما تبقى الزجاجة أمراً ثانوياً.

فالنظرة الأولى تمثل (المعنى الاسمي) أي أن زجاجة المرآة معنى مقصود، وصورة الشخص المتمثلة فيها (معنى حرفي) غير مقصود.

وأما النظرة الثانية فصُورة الشخص هي المقصودة، فهي إذن (معنى اسمي) أما الزجاج (فمعنى حرفي)»(4).

ويستخلص الأستاذ فريد من هذا القول ما يفيد بقيمة المصطلح بالنسبة للعلم الذي ينتمي إليه فيقول : «فكذلك وضع المصطلح من سائر العلوم والمعارف : هو (المعنى الاسمي) وما سواه مما ترتب عليه وقام به هو (المعنى الحرفي)»(5).

وانطلاقا من هذه القيمة أو الأهمية يبين الأستاذ فريد رحمه الله أن أركان العلم، أي علم، تنقسم إلى ثلاثة أقسام هي : المصطلح والقاعدة والمنهج. «فأول ما ينشأ من العلوم مصطلحاتها، إذ تنشأ المفاهيم أولا، فيحتاج العلماء للتّعْبير عنها، وبذلك تتولد المصطلحات، فهذه إنما هي تسمية لمواليد العلم من سائر المفاهيم والمقولات التي هي أساس تكوين العلم ونشأته»(6).

وإذا كانت المناهج -كما يقول الأستاذ فريد رحمه الله- ليست سوى تركيب قاعدي في نسق معين من شأنه إنتاج البحث في العلم. وإذا كانت القاعدة ليست سوى مجموع نسقي من المصطلحات فمعنى ذلك «أن فهم العلم إنما يبدأ من المصطلح، وأن مآل العلم في التكوين والتحديد إلى المصطلح، ولذلك كانت عبارة الخوارزمي في تسمية كتابه (مفاتيح العلوم) أدق عبارة في تسمية وظائف الاصطلاح»(7).

نماذج تطبيقية

لقد فوجئ الأستاذ فريد رحمه الله وهو يروم دراسة المصطلحات في الكليات «بثروة مصطلحية نادرة، وكنز مفهومي ثمين، يشعر الدارس أن وراءه عبقرية ذات حس مصطلحي دقيق»(8). ولعل ما سبقت الإشارة إليه من حديث النورسي رحمه الله عن المعنى الاسمي والمعنى الحرفي دليل واضح في هذا الباب، هذا الكنز المصطلحي وهذا الحس الدقيق به، جعل **الأستاذ فريد رحمه الله يقول إن المصطلح عند النورسي «يصعب تصنيفه على الطريقة التقليدية وإن المرء ليحارُ فعلا كيف يصنف مصطلحاته؟ وإلى أي علم ينسبها؟ أإلى القرآن وعلومه؟ أم إلى الكلام وعلم العقائد؟ أم إلى التصوف وعلوم الأخلاق؟ أم إلى الفلسفة بمعناها التقليدي؟ أم إلى غير هذا وذاك؟»(9).**

لكن الأستاذ فريد رحمه الله بذكائه الوقاد وخبرته العلمية في دراسة المصطلح استطاع أن يرصد مفاتح الكليات من خلال المصطلحات الستة السالفة الذكر، وأن يجمع الشجرة المفهومية لدقائق الكليات من خلالها. ولعل نظرة بسيطة أولية في ترتيب هذه المصطلحات الستة في الدراسة ينبئ عن فكر ثاقب للأستاذ فريد وتصور مشبع بروح الإيمان، ومن ثم **بدأ بمصطلح (التوحيد) باعتباره الركيزة الأولى لعقيدة الإسلام وعليه مدار الدار وثناه بمصطلح «الإنسان» المعني بهذا التوحيد والمطالب بتمثله وإدراكه حق الإدراك. وثلثهما بمصطلح (الكون) الذي تتجلى فيه أحدية الله سبحانه وتعالى لما تتضمنه من كائنات هي آيات وجودية ناطقة بتوحيد الله ودالة عليه تعالى، ثم لأنه هو المجال الذي استخلف فيه الإنسان المطالب بتدبره لإدراك عظمة الخالق والتيقن بوحدانيته ثم أتبع هذه المصطلحات بمصطلح (القرآن) باعتباره وحيا منزلا يبين صفات الواحد الأحد عز وجل وينظم للإنسان دينه ودنياه في علاقته بخالقه والكون الذي يعيش فيه، وبذلك تنسجم آيات الوحي مع آيات الكون انسجاما تاما في رؤية الإنسان وتعبده، وبعد ذلك انتقل إلى مصطلح (الانتساب الإيماني) على أساس أن هذا الانتساب هو الذي يعلي من قيمة الانسان الروحية، ويبعده عن أدران المادية، ليختتم هذه المصطلحات بمصطلح (الأخلاق) التي هي قوام إنسانية الإنسان.**

وإذا كانت الكليات تتضمن ثروة مصطلحية نادرة، والإحاطة بها في مؤلف كامل عسيرة، فإن الكشف بتفصيل تطبيقي عما تضمنه عنوان هذا العرض لابد أن

تتمة : ص 39